أُمِّي

ندى جمال

أجلس في صدمة لا أقدر على الحراك فقلبي ساكن مثل جميع جسدي.. أجلس في صدمة وأنا أرى جسد أمي المريض بالكاد يقوى على التنفس، أنظر حولي لأجد أهلي يتضرعون إلى الله ونحن نعلم أن النهاية قريبة..أشعر بيد أخي المرتعشة تحاول أن تطمئنني.. وأنا؟ تجمدت مشاعري..وقفت أنظر حولي من الصدمة أحاول أن أشغل تفكيري بأي شيء، ففكرت بالماضي.. بلحظة عشناها دون خوف أو قلق.. اللحظة التي سبقت مرضها.كنا عائلة -لن أقول سعيدة- ولكن كنا أقوياء نعبر الشدائد معًا.. حتى مرضت أمي وعلمنا أنه المرض اللعين.. سرطان في الدم.. والمرحلة.. مرحلة الوداع.. علمنا أنها النهاية فهي قد تعدت مرحلة العلاج، مرت أربعة أشهر بالمستشفى..أربعة أشهر نراها في اليوم دقيقتان.. أربعة أشهر نعيش في رعب تام.. رعب من أن نُحرَم من هاتين الدقيقتين، وكل يوم كنا نراها - مثل الوردة بدون عناية - تذبل يومًا بعد يوم.. كنا نعلم أن ذلك أقصى ما كان مرتب أبي الصغير يقدر على توفيره.. كما كنا نعلم أنه حتى لو كان يقدر.. فلن يؤثر.. فالقدر قد قال كلمته الناهية.. ظللت أفكر في هذه الأشهر الأربعة في حياتنا بدون العمود الفقري لها..الأم..فكرت في كل يوم استيقظت فيه أبحث عنها ولا أجدها آملة أن يكون كل هذا كابوس. فكرت في كل يوم محيت فيه من ذاكرتي مرضها حتى أقدر على العيش والتنفس. فكرت في كل يوم أجد نفسي أعاني في طهي أشياء لا علم

لي بها.. ومع ذلك كنت أجالد...فكرت في كل يوم تَجَلَّدتُ فيه ومنعت دموعي من النزول حتى أَشُدّ بأزر أبي وإخوتي. فكرت في كل وقت سألني فيه أحد عنها وقلت هي بخير وأنا أعلم تمام العلم أنها ليست بخير.

فكرت في ضحكة المنزل التي اختفت باختفاء ضحكتها.. فكرت في مزاحنا معها وتظاهرها بالحزن حتى نترجاها ألا تحزن..

فكرت في كل لحظة ضَحَّت فيها من أجل سعادتنا..

فكرت في نظرتها لي عندما كنت من أوائل مدرستي وهي تقول»أنا فخورة بك»..

فكرت في ابتسامتها وضحكتها..

ما هذا الصوت؟

ما هذا الصراخ والعويل.. من أين جاء؟!

نظرت حولي..آآه إنها خالتي..ولكن لماذا تصرخ؟!

أمي!!

نظرت أمامي في سرعة..ما هذا؟!

لماذا جهاز القلب صامت؟

لماذا تَوَقَّفَت عن التنفس؟

أمي ماتت ؟!

ذهبت إليها.. حضنتها.. بكيتها.. صرخت أرجوها ألا ترحل.. أرجوها أن تسامحني على كل ما فعلت يومًا أرجوها أن تعود معنا إلى المنزل وسأعيش خادمة لها.. ترجيتها من كل قلبي ودموعي تسابق كلماتي.. لا تتركيني ! هززتها..لماذا لا تَرُدِين عَلَيّ؟.. استيقظي..أنتِ لَمْ تَذهبي.. أنتِ حية..أستطيع الشعور بوجودُكِ حولي.. أستطيع شم رائحتك..عودي إلي.. ألم تعديني أنك لن تتركيني أبدًا عودي أرجوك..أرجوك لا تتخلِ عني.. سحبني أخي إلى صدره موضحًا أنها قد ذهبت إلى من هو أفضل منا جميعًا .. تملصت منه قائلة:

- اتركني..هي حية..اتركني.

ذهبت اليها واستوعبت أخيرًا..لقد ماتت !!

وها أنا ذا..أكتب قصتي بعد مرور عام ونصف..وللتوضيح..

ألم الشوق إليها كان أقسى من كل شيء

ألم أن أستيقظ كل يوم عَالِمَة أني لن أراها فيه..

ألم أن أدخل المنزل وَأوْقِف عيني عن البحث عنها..هي ليست هنا !

ألم أن أنظر لباب المنزل عند سماع صوت مفاتيح آملة أن أراها قادمة من العمل ولا تأتي..

ألم أن يأتي العيد ورمضان والناس سعداء وقلبي مكسور..لا قادر على شفائه إلا هي..

ألم أسوأ يوم في الحياة..»عيد الأم» فأتذكر كل هدية أعطيتها وفَرَحَتْ بها..حتى عندما كانت ورقة !

ألم أن ينظر إلَيَّ الجميع في انتظار أن أنفجر في البكاء مثلا؟! أو في انتظار أن أصرخ «أمي ماتت»؟!

ألم أن تتجه نظرات الجميع لي بشفقة عندما تأتي سيرة والدة أحد من الجالسين

ألم أن أعيش في منزل أتذكر وجودها في كل شبر فيه ومع ذلك..لا أراها فيه..

ألم أن أفقد الأمل في المستقبل..فما فائدة النجاح إذا كان بدون فخرها وابتسامتها العريضة لي..

ألم أن أعلم أن شيء ما كان ليسعدها جدا ولكنها ليست هنا لتراه..

ألم أن يكون صدري مليء بالهموم والأحزان ولا يوجد من أفضي إليه بهم..

ألم أن أنظر لصورتها وأتذكر حديثنا وسهراتنا وأتيقن أن ذلك من الماضي فقط..

ألم أن أتذوق الطعام عَالِمَة أنه لن يوجد طعام يضاهي طعامها جمالًا..

ألم أن أجلس مع العائلة كلها بدون وجودها معنا..أليست هي من العائلة ؟!

ألم أن أستشعر وجودها حولي حتى هذه اللحظة ولكن بدون أن أراها

أو أحتضنها أو أن أشكو إليها ما جرى لي من بعدها..

ألم أن يؤلمني قلبي من الشوق إليها وأعلم أنه داء بلا دواء

ألم أن أدعو لك بالرحمة مع يقيني الداخلي أنك مازلت حية..

ألم أن أسمع كلام الناس عنك بصيغة الماضي..

كيف وأنت الحاضر والمستقبل؟!

ألم أن أرى متعلقاتك وأشم فيها رائحتك لأفتح عيني ولا أجدك..

ألم أن أرتدي إسدالك وأشم رائحتك فيه وأراك ترتدينه لأفتح عيني ولا أجدك..

ألم أن أجد نفسي فجأة مسؤولة عن منزل بالكامل طهي وغسيل ونظافة.. فإن لم يكن أنا..من سيكون؟!

ألم أن أبكي من آن إلى آخر..حزنًا على ما قد جرى ، شوقًا إلى من كوَّنتنِي وربَّتنِي..

ألم أن أرى خط يدها على الورق وأتذكر تفاصيل يدها بعروقها البارزة برقة وبِدِبْلَةِ زواجها من والدي تتلألأ في جمال..

ألم أن أتمنى كل يوم أن أراها ولو للحظة..وأبدا لن تتحقق الأمنية فقد انتهى زمن المعجزات..

ألم أن أنام كل ليلة أتمنى أن أراها في المنام ولا يحدث إلا لُمَامَا

ألم أن يُعَكِّر صَفْوَ حلمي بالزواج لعلمي أنها لن تراني في الفستان الأبيض..

ألم أن أعلم أنها لن ترى زوجي ولن تحمل أطفالي..

ألم أن أعلم أني سأُحرَم من رؤيتها جدة لأولادي..

ألم أن أسمع كلمة "ماما" وأعلم أني أبدا لن أقولها ثانِيَةً..

ألم أن أعيش دور زوجة وأم وأنا مازلت ابنة.. فتاة صغيرة لا تعلم من ألقى بها في عالم الكبار..

ألم ألا أقدر على كتابة رثاء لها حتى يومنا هذا.. فقلبي لا يطاوعني..

ألم أن أرى التعاسة في عين أبي عندما تأتي سيرتها..فهو قد فقد حبيبته الغالية..

ألم أن أرى إخوتي في معاناة من بعدها..ضائعين في دوامة الحياة..

ألم أن أموت وأنا على قيد الحياة

ألم أن أرى أمهات الجميع بجوارهم..يشجعونهم أتذكرها وأتذكر كلماتها الحنونة وأعلم أني قد حُرِمتُ من كل هذا للأبد..

حُرِمتُ من نظراتها وابتسامتها ورقتها ونقاء روحها..

حُرِمتُ من توصيتها لي بالصلاة والقرآن..

حُرِمتُ من كل شيء بحرماني منها.. فقد حُرِمتُ من الحياة !..

كلها آلام لا تُوصَف..والكتابة لن تمحوها ولست أكتب لأجل شفقة أو تصفيق.. إنما أكتب آملة أن قراءتها قد تُآزِرَ من جَرَّب هذه المعاناة.. أنت لست وحدك !